الباب الثالث

القدس قبل الميلاد

القدس في عهد الكنعانيين والعبرانيين 966 ق.م

أقدم وثيقة محفوظة أوردت اسم القدس أورسالم أورشاليم هي وثيقة مصرية ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، حيث كان سنوسرت الثالث 1878 – 1843ق.م يعد ملك روشاليموم أو أوشاميم عدوا له يستحق اللعنة في الطقوس الدينية وهناك وثائق أخرى ذات أهمية أكبر في هذا السياق، وهي رسائل تل العمارنة المصرية المكتوبة بالخط المسماري على ألواح عتيقة، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ أي إلى عصر أخناتون 1372 – 1354ق.م وقد اكتُشفت هذه الألواح سنة 1887م على يد فلاحة مصرية ونُقل ما نجا منها حوالي 370 لوحاً إلى متاحف العالم في القاهرة وبرلين ولندن وبلجيكا وروسيا وإستانبول وباريس وغيرها! وتكشف هذه الألواح عموماً عن اضطراب الأجواء السياسية حينئذ في الإقليم الذي تتبعه القدس، فقد كثرت الشكاوى إلى الفرعون أخناتون من ظلم بعض أمرائه، وتعددت الثورات على هؤلاء الأمراء، كما اشتدت غارات قبائل

البدو الساميين المسماة خبيري على الأملاك التابعة لفرعون مصر، وكثرت رسائل الأمراء في هذا الإقليم يطلبون النجدة من أخناتون ، فبعث إليهم بحملة أعادت الهدوء، وأدّبت الخارجين لكن العواصف السياسية اشتدت من جديد عقب عودة الحملة، فخرج بعض الأمراء على الفرعون، وتوغلت قبائل خبيري من جديد في الأماكن المأهولة والمدن المعمورة، حتى فرضوا الضرائب على مدن عديدة كغزة وعسقلان وكان أمير أورشليم القدس حينئذ يُدعى عبدي خيبا، وقد تحالف مع بعض الأمراء المجاورين له لرد الغارات البدوية عن مناطق نفوذهم، لكنهم اختلفوا فيما بينهم، وهُزم عبدي خيبا أمام حلفائه السابقين وأمام البدو، وتقلصت المساحة التي يحكمها، حتى حوصر في أورشليم، وبعث إلى أخناتون برسائل استنجاد حارة، حتى قال في إحداها: إنهم الآن يحاولون الاستيلاء على يوروساليم، وإذا كانت هذه الأرض ملكاً للملك، هل تترك يوروساليم تسقط؟! لكن سوء الأحوال في مصر ذاتها حال دون إنقاذ شرق البحر المتوسط من الخروج عن السيطرة المصرية.

هجرات عربية إلى الأرض المباركة

اتفقت جميع الأمم والكتب القديمة والحديثة على أن فلسطين كلها كانت تسمى في القديم باسم أرض كنعان، واعترفت بذلك أسفار العهد القديم

اليهودية، وحين نسأل: ومن كنعان هذا؟ سنجد الإجابة ببساطة: هم شعب سامي، نزح من منطقة إلى أخرى أخصبَ منها، وأكثرَ مناسبةً للحياة والمنطقة التي هاجر منها هذا الشعب هي شبه الجزيرة العربية، التي خرجت منها موجات متتابعة من المهاجرين منذ أزمان طويلة، بسبب كوارث وسنوات جفاف وقعت هناك والحقيقة التي لا مجال للشك فيها أن ما يُسمَّى الآن باسم بلاد الشام، قد عُمِر منذ أزمان بعيدة بسلالات عربية، كالآموريين والكنعانيين والفينيقيين،وطرأت عليهم هجرات أخرى صغيرة في أزمنة متأخرة نسبياً من بلاد ما بين النهرين وجزر البحر المتوسط، واختلطت هذه الأجناس فيما بينها بصورة هائلة في زمن طويل، لكن اكتساب هذه البلاد لاسم مثل: كنعان، وفينيقية منذ زمن قديم يؤكد غلبة العنصر الذي تمثله هذه الأسماء ويذكر دارسو الحضارات القديمة أن الفينيقيين هاجروا من شرق الجزيرة العربية إلى أرض كنعان حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، واستوطنوا شواطئ البحر المتوسط، لترتبط حياتهم في أرض هجرتهم بالبحر المتوسط كما ارتبطت في أرض إقامتهم الأولى بما يسمى الآن الخليج العربي لكن إخوانهم الكنعانيين الذين يشاركونهم في أصول واحدة كانوا قد سبقوهم إلى هذه الأرض، وثبّتوا أقدامهم فيها، إلا أنهم اختاروا المواطن الداخلية غير الشاطئية في عموم سوريا؛ ليقيموا فيها مدنهم ومنازلهم، وهو ما قد يعكس عدم

ارتباطهم بالبحر في مواطنهم الأولى والتاريخ يسجّل للشعوب العربية التي سكنت شرق البحر المتوسط أنهم علّموا العالم الكتابة القائمة على الأبجدية،كما أثبت الباحثون من خلال دراسة المصطلحات الرياضية والفلكية وفنون العمارة والري والزراعة والعادات الدينية للأمم القديمة أن هناك تشابهاً كبيراً بين حضارة الفينيقيين وبين الحضارات القديمة التي قامت في أمريكا، مما يرجّح بقوة معرفة الفينيقيين بالأمريكتين منذ زمن طويل والكنعانيون هؤلاء هم بناة القدس الأوائل، وعلى وجه الدقة نقول: إن اليبوسيين وهم فرع كنعاني قد أقاموا البناء الأول للقدس قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام تقريباً وقد وجدهم بنو إسرائيل مستقرين في فلسطين منذ زمن طويل حين دخلوا أورشاليم في القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً ومن المعلومات المذكورة عن اليبوسيين أن لغتهم الأصلية كانت سامية كنعانية، وحين سيطر البابليون القادمون من بلاد ما بين النهرين على القدس، أخذ اليبوسيون عنهم لغتهم وعن عموم الكنعانيين ذكر المؤرخون أنهم ظلوا خلال ألفي سنة جسراً بين مدن الحضارة على الفرات والنيل،ومنهم أخذ اليونان الحروف، ونقلوها إلى العالم وتأثر الإسرائيليون بحضارة الكنعانيين، فأخذوا حروفهم التي كُتب بها العهد القديم، وتأثروا بأسلوبهم الشعري وبموسيقاهم وبدينهم.

العرب يبنون القدس يبوس لأول مرة:

كان النازحون إلى أرض كنعان ومن الفروع الكنعانية التي سجل لها التاريخ خلود الذكر اليبوسيون؛ والسبب في ذلك هو: بناؤهم مدينة القدس لأول مرة في التاريخ فهذه المدينة واحدةٌ من أشهر المدن التي عَمَرها الإنسان، وموطنٌ قُدِّر له أن يشهد من الأحداث ما لم تشهده إلا قلة نادرة من المدن، وهو ما لم يكن لليبوسيين به علم وهم يشيدون مدينتهم والقرن الذي بدأ فيه البناء الأول للقدس يقع ضمن العصر البرونزي واكتشاف مثل هذه الأماكن لإقامة مدينة عليها، غالباً ما يعتمد على تجارب لرواد أو جماعات صغيرة سكنت المكان بصورة ما واختار اليبوسيون لمدينتهم مكانًا حصينًا يرتفع عما حوله من الأرض، وشيدوا لها حصناً لحمايتها، واختاروا لها أيضاً موقعاً حيوياً؛ ليتيسر لهم الانتفاع بمميزات تجارية وخيرات طبيعية تتيحها مدينة تقبع في هذا المكان، فبنيت القدس يبوس مع مدن كنعانية أخرى على طريق المياه بين الشمال والجنوب،وأقيمت على مرتفع الضهور وهو التل الجنوبي الشرقي في القدس القديمة القائمة الآن داخل السور قرب عين ماء جيحون نبع العذراء، وحُفر تحت الجبل نفق تُنقل من خلاله مياه النبع إلى الحصن.

القدس في عهد الملك داود 966 ق.م - 963 ق.م

نصب داود ملكاً على العبرانيين عام 1004 ق.م بعد أن كان محاربًا بين جند الملك شاؤول وكان يقيم في مدينة حبرون الخليل ولما استقر له الحكم أراد أن يتخذ لنفسه موقعاً أكثر تحصيناً فوجد مطلبه في مدينة يبوس فهي وعرة المسالك للقادم من خارجها وهي مسورة غير مكشوفة للغزاة، كما أن المدينة كانت تتوسط مواقع القبائل اليهودية وكانت اثنتي عشرة قبيلة متفرقة في البلاد وبذلك يتمكن من السيطرة عليها جميعاً.

وتمكن داود عليه السلام من أن يجتاز أسوار المدينة ويدخلها عام 966 ق.م وكانت يبوس تتمتع بوجود حكومة فيها وصناعة وتجارة وحضارة متقدمة، فاتخذها عاصمة ملكة وأسماها مدينة داود كما جعل اليهودية الديانة الرسمية في البلاد حيث جعل هناك نوعاً من الاتحاد بين القبائل اليهودية في مملكة واحدة، وتابعه لحكم مركزي واحد ويعتبر المؤرخون فترة حكم داودعليه السلام الفترة الذهبية الأولى في حياة العبرانيين من النواحي السياسية والأدبية على وجه الخصوص.

القدس في عهد الملك سليمان 963 - 923 ق.م

تقول الرواية اليهودية أن الملك سليمان عليه السلام رأى أن يكون على وفاق مع فرعون مصر فصاهره وتزوج من ابنته وبذلك تمكن من

بسط نفوذه وحكمه إلى جهات العقبة وسيناء وسورية وقد يكون امتد من دان إلى بئر السبع على حسب القول المشهور عند اليهود وهكذا يعتقد أن المملكة العبرية وصلت في عهد الملك سليمان إلى ذروة مجدها وشابهت في كثير من الأمور الممالك الشرقية المعاصرة وكانت أهم إنجازات الملك سليمان في مدينة القدس حسب ما أوردته الروايات التاريخية :

1 ـ أنه بنى لنفسه قصرًا ملكيًا خاصًا به استغرق بناؤه ثلاث عشرة سنة.

2 ـ يقال أن الملك سليمان شرع في بناء الهيكل الذي اشتهر في التاريخ باسم هيكل سليمان في العام الرابع من حكمه وأنه أنجز في سبع سنوات 960 ـ 953 ق.م وتشير الروايات التاريخية أن الهيكل بقي قائماً منذ أن تم بناؤه في عهد الملك سليمان عام 953 ق.م إلى أن تم تدميره نهائياً في عهد البابليين على يد نبوخذ نصر عام 586 ق.م خلال حملته الثانية على القدس، حيث أخذ زينات الهيكل ومحتوياته ثم دمره تدميرا نهائياً ولم يتمكن الأثريون من إيجاد أي أثر له على الإطلاق في المكان الذي يقال أنه بني عليه.

3 ـ قام الملك سليمان بتحديد بناء ما كان هناك من أسوار للمدينة وعمل على إنشاء وفتح المخازن التجارية في المدينة لتمد القوافل المتنقلة بين بلاد الرافدين ومصر غير مدينة القدس بما تحتاجه من المواد التموينية.

لكن فنكلشتاين يقول : أنه بناء على نصوص التوراة كان الملك سليمان بانيًا كبيرًا، إلا أن الملك أجاب الذي تتحدث عنه التوراة كان حاكماً ضعيفًاً ومتزوجاً من امرأة زانية اسمها ايزابيل كان على ما يبدو هو البناء الأكبر للأبنية التاريخية المهمة،حيث يعلل ذلك قائلاً: إن المكتشفات الأثرية حتى الآن لفترة حكم داود وسليمان في القرن العاشر ق.م بنيت على ما يبدو بعد ذلك بمائة عام أي في فترة حكم الملك أجاب ولما توفي سليمان عليه السلام تولى الملك من بعده ابنه رجيعام عام 923 ق.م. وتشير الروايات التاريخية المعتمدة على نصوص التوراة أن الوحدة المؤقتة بين القبائل اليهودية التي حققها داود وسليمان خلال حكمهما كانت معرضة في كثير من الأحيان للانهيار، إذ كان الخلاف اقتصاديا بالدرجة الأولى بين أهل الشمال الذين عملوا في الزراعة وأهل الجنوب الرعاة، وكذلك الخلاف بين طقوس الشماليين الكنعانية الطراز وطقوس الجنوبيين التي عبدت الإله يهوه، كل ذلك أدى إلى تحين الطرفين الفرصة للانقسام وقد لاحت هذه الفرصة بعد موت الملك سليمان عام 932 ق.م حيث تشير الروايات اليهودية أن ممثلو القبائل الاثنى عشر اجتمعوا في شكيم قرب نابلس لمبايعة رحبعام بن سليمان ملكاً عليهم وكان في السادسة عشرة من عمره، وعندما سئل إذا كان سيعمل على تخفيف عبء الضرائب التي فرضها والده عليهم، رد رجيعام بقسوة على

سائليه، فاتفق ممثلو عشر قبائل منهم على عدم مبايعته، فأدى ذلك إلى انقسام المملكة اليهودية إلى قسمين :

1 ـ مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة نابلس وانضم إليها عشرة أسباط.

2 ـ مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم القدس وانضم إليها سبطان فقط.

ونتيجة لانقسام المملكة اليهودية ضعفت شوكة اليهود، وتعرضت القدس إلى غزوات متلاحقة وغدت البلاد نهباً مقسماً بين الغزاة والمهاجمين من المصريين والسوريين والآشوريين وحسب النص اليهودى فإن فرعون مصر شيشنق استغل فرصة تقسيم المملكة اليهودية وزحف إلى مملكة يهوذا حوالي عام 920 ق.م واحتل أورشليم ونهب خزائنها وقفل راجعاً إلى مصر وتعرضت مدينة القدس بعد الغزو المصري إلى غزو سوري، فقد أخذ بنحدد الأول وهو أحد ملوك دمشق في الفترة 843 ق.م ـ 779 ق.م من ملوك يهوذا كنوزًا من معبدهم ومن القصر الملكي في أورشليم وجعل المدينة تحت سيطرته وهكذا كانت تسير الأمور من سيء إلى أسوأ في المملكتين، ولم يكن لمملكتي يهوذا أو السامرة أي سلطان على الأجزاء الباقية من فلسطين.

القدس بعد عهد العبرانيين والعصر الروماني

لم يكن هدف شيشنق الأول من حملته على فلسطين حوالي سنة 920 ق. م أن يضع يده عليها مباشرة، إنما أراد فقط أن يضمن ولاءها للتاج الفرعوني، ويقضي على أي قوة يمكن أن تنشئ دولة متحدة فيها؛ لذلك بقيت سلالة سليمان تحكم هناك زمناً، حتى دمر الآشوريون مملكة إسرائيل عام 722 – 721 ق.م، ودمر البابليون مملكة يهوذا سنة 597 ق.م وحسب رواية العهد القديم، فقد مكث رحبعام بن سليمان في حكم مملكة يهوذا وعاصمتها القدس سبع عشرة سنة، حيث مات بعد حملة الفرعون شيشنق باثنى عشر عاماً، وتتابعت ذريته في حكم المملكة الجنوبية حتى بلغوا تسعة عشر ملكاً، حكم بعضهم شهورًا، وتجاوز حكم بعضهم نصف قرن من الزمان وكان الجو مهيّئا لسقوط المملكتين اليهوديتين إسرائيل ويهودا، فقد عمت الفُرقة والتشرذم والتقاتل الداخلي،وانتشر بين عامة الناس وخاصتهم الفسادُ الخلقي والانحراف عن أوامر الدين، حتى كانت القدس نفسها ساحة مفتوحة للانحراف في العقيدة والخلق وظهرت في هذه الأثناء دول متحضرة، لكنها ضارية كالوحوش، فيما بين النهرين دجلة والفرات في أزمنة متتالية، فدمر الآشوريون أولاً عروش دولة إسرائيل التي حالفت السوريين ضدهم، وأوقفوا زحفهم في عهد الملك العبري أخاب بن عمري حكم من 874 –

852 ق.م، فتربص الآشوريون بمملكة إسرائيل حتى أسقطها سرجون الثاني بعد وفاة أخاب بثلاثين عاماً وكان من الطبيعي أن يحاول ملوك آشور السيطرة على مملكة يهوذا وعاصمتها القدس، أو على الأقل ضمان ولاء ملوكها لهم، وقد تعرضت أورشليم للكثير من المخاطر أثناء هذا الصراع ولم يمر وقت طويل حتى دمر البابليون المسجد الأقصى وخربوا مدينة بيت المقدس ودولة يهوذا كلها.

محاولات آشورية للسيطرة على القدس

مع القوة الهائلة التي بلغتها مملكة آشور، إلا أن جيوشها عجزت عن احتلال القدس، واكتفى ملوكها في عنفوان قوتهم بحصار المدينة داخل محيط من الممتلكات الآشورية وكثيرون لم يكن من مصلحتهم أن تستقر للآشوريين قدم في فلسطين، فقد اعتاد حكام مصر القريبون أن تكون هذه البلاد تابعة أو موالية لهم، ولن يرضيهم أن يقوم فيها سلطان قوي لغيرهم، كما كان هناك منافس لملك بابل سنخرب أو سنحاريب اسمه مروداخ بلدان على عرش المملكة، ويهم هذا المنافس أن يصنع القلاقل لخصمه في كل ناحية وحرّض خصوم سنحاريب ملوكَ فلسطين على الثورة على سلطان الآشوريين، وكان ملك يهودا حزقيا أقوى هؤلاء الثائرين، فسعى إلى زيادة مناعة عاصمته أورشليم بقوة، وأمّن وصول

الماء إليها من مجرى مائي تحت الأرض ليقاوم الحصار، كما سعى إلى توسيع حدود مملكته وطرد الثائرون الأمراءَ الموالين للآشوريين في جنوب فلسطين،حتى تسلّم حزقيا في أورشليم بادي أميرَ إكرون الموالي لآشور مقيَّداً بالسلاسل والأغلال.

كان هذا إهانة بالغة لملك آشور القوي سنحاريب، فزحف من توّه إلى الجزء الغربي من مملكته، وبدأ بصيدا وصور الفينيقيتين، ودخلهما بيسر بالغ وحاول المصريون إنقاذ حلفائهم، ولكن أيام مجد الفراعنة الذهبي كان قد ذهب، وجاء دور سيادة بلاد الرافدين، وممالكها الفتية، وانتصر الآشوريون ولقي سنحاريبُ قادةَ الثورة ضده،وعاقبهم بقسوة بالغة، وفكّ أسر حاكم إكرون الموالي له من أورشليم، لكن بقيت أورشليم نفسها تحت الحصار سنة 701 ق.م أبيّة على الغزاة، فعجزوا عن اقتحامها، واكتفوا من يهودا بمدنها الأخرى دون عاصمتها المقدسة.

ومن الأشياء الثمينة التي حُفظت لنا حول حصار آشور لأورشليم متنٌ أثري من أيام الملك الآشوري سنحاريب نفسه سجل عليه انتصاراته، ومما قاله فيه: وفي حملتي الثالثة زحفت على ختي بلاد خيتا في سوريا، وقد هرب لولي ملك صيدا الذي حرقه سحر سيادتي الذي يبعث الرهبة إلى بعيد وقد هزم بهاء سلاح الإله آشور الذي يبعث فيّ الرهبة مدنه

القوية: صيدا الكبيرة وصيدا الصغيرة وعكا، وكل البلاد ذات الحصون المسوَّرة والحسنة التموين بالطعام والماء لحامياته وقد هاجمتُ إكرون، وقتلت الموظفين والأعيان الذين ارتكبوا الجريمة أي سلّموا ملكهم بادي لعدوّه ملك أورشليم، وعلّقت أجسامهم على عمد محيطة بالمدينة وجعلت بادي ملكَهم يعود من أورشليم، ووضعته على العرش سيداً عليهم، وفرضت عليه الجزية أما حزقيا اليهودي، فإنه لم يخضع لنيري، وقد وضعت الحصار على ست وأربعين من مدنه القوية وحصونه المسوَّرة وعلى القرى الصغيرة المجاورة التي لا حصر لها، وفتحتها بوساطة بناء منحدرات من الطين مكينة ومنجنيقات نُصبت بالقرب من الجدران بالإضافة إلى هجوم المشاة الذين كانوا يستعملون الألغام والنقب والتقويض ، وقد سقتُ منها 200150 نسمة صغارًا ومسنين وإناثًا، وكذلك خيلاً وبغالاً وحميراً وجمالاً وماشية صغيرة وكبيرة يخطئها العد، واعتبرتها غنيمة.

أما حزقيا، فقد جعلتُه سجينا في أورشليم مقرِّه الملكي كالطائر في القفص ، وقد أحطتها بمتاريس؛ لأجل أن أضايق أولئك الذين يطرقون باب مدينته وأنتجت هذه الحروب خراباً في مملكة يهودا بقي أغلب سنوات القرن السابع قبل الميلاد، وتحولت المملكة العبرية إلى تابع يدفع الجزية لملوك آشور ومن النقوش الأثرية النادرة التي تسجل هذه

السيطرة الآشورية والتبعية العبرية نص يرجع إلى أيام الملك الآشوري آشوربنيبال 669 – 626 ق.م، سجل فيه أخبار حملة له على سوريا وفلسطين ومصر، لكن مع مرور الزمن بَهتت سيطرة الآشوريين، وضعفت قوتهم، وبدأ ملوك أورشليم يحاولون التوسع من جديد، وزحف المصريون في عهد الفرعون نخاو أو نيكاو الأسرة السادسة والعشرون على فلسطين، وسيطروا على الشاطئ، وضمنوا ولاء العبريين لهم.

في الوقت ذاته ظهرت في بلاد الرافدين قوة جديدة، أسقطت دولة الآشوريين، ودمرت عاصمتهم الزاهرة نينوى، وهذه الدولة القوية هي الدولة البابلية، التي سيكون على يدها التدمير الأول والكبير للقدس وقد عُثر في سقارة بمصر على رسالة آرامية من ملك إحدى مدن فلسطين، يذكر فيها تقدم البابليين في جنوب فلسطين.

الفرس وحلقة جديدة في تاريخ القدس

منذ القرن السابع قبل الميلاد انتقل ميزان القوة في العالم القديم من مصر إلى دول آسيوية، نشأت في تواريخ متتالية أو متعاصرة، خاصة في بلاد الرافدين، وكانت دولة الفرس الأخمينيين أو الأخمينيسيين نسبة إلى ملكهم الأول أخامنيس إحدى هذه القوى الآسيوية الفتية ومن أهم مراحل حياة هذه الدولة: قضاء ملكها كورش سيروس الثاني على مملكة ميديا

في قلب إيران سنة 553 ق.م؛ إذ ورث وأسرته من بعده عرش دولة واسعة، ولم تبق بعد الميديين قوة دولية تستطيع وقف التوسع الفارسي. ولم تكن قوة بابل ومصر حينها متجهة إلا إلى الأفول ومؤرخو التاريخ القديم يقولون عن هذه الفترة: لا نزاع في أن هذا التغير كان يعني انقلاباً ثورياً في الموقف العالمي؛ إذ كانت مملكة ميديا بما لها من قوة جبارة تُعَد خطراً خفياً على جيرانها وقد كان المنتظر في كل لحظة في هذه الفترة من الزمن أن تقبض مملكة فارس على السيادة العالمية، وتنشر سلطانها على العالم المتمدين.

دخلت القدس في مرحلة تاريخية جديدة لها وأهم ما يميز هذه المرحلة في تاريخ القدس هو سماح كورش للمنفيين من بني إسرائيل بالعودة إليها، إلا أن قلة قليلة منهم هي التي عادت إلى القدس، أما الأكثرية فكانوا قد كيّفوا حياتهم مع الواقع الجديد، واستقرت أوضاعهم في بلاد ما بين النهرين، وفضّلوا البقاء في المنازل الهادئة التي أقاموها على شواطئ دجلة.

وقد اختار الفرس هذه السياسة الهادئة مع كل الأقوام الذين خضعوا لسلطانهم، حتى إنهم بعد أن هزموا الميديين تركوا جزءاً كبيراً من إدارة إقليمهم في أيديهم، وأشركوا معهم بعض الفرس، كما أعطوا ما يشبه

الحكم الذاتي للأقاليم التي خضعت لهم ويرد المؤرخون ذلك إلى حكمة السياسة الفارسية، التي كان أصحابها يَعُدون أنفسهم أغراباً عن هذه الأقاليم، ولن يسهل لهم السيطرة على إمبراطوريتهم الواسعة جداً إلا بهذه الطريقة .

بعد أن سمح أباطرة الفرس الأخمينيون بعودة بني إسرائيل، كانوا يولّون منهم أميراً تابعاً على بيت المقدس، وسمحوا لهم بجمع التبرعات من الشعب العبري والكهنة، لبيت إلههم الذي في أورشليم بل تبرع لهم بعض الملوك الفرس أنفسهم لكننا لا نعلم مدى صحة هذه المعلومات، ويمكن مطالعتها في سفري عَزْرَا ونَحَمْيَا مع ملاحظة أن أحد المتخصصين في دراسة اللاهوت واللغة العبرية و. أ. ل. إلمسلي أحد محرري كتاب تاريخ العالم يقول عن كاتب السفرين الأخيرين: معلوماته عن الفترة الفارسية الأولى مبتورة مشوشة، بل إنه لا يمكن الاعتماد عليه حتى في روايته للأحداث التي وقعت بعد مائة عام من ذلك الوقت، وهي الفترة التي عاصرها نحميا ورأيه في استعادة اليهود لمجدهم تسيطر عليه بوجه عام نظرية خاصة تجعل هذا الرأي مضللاً أشد التضليل وقد سجل الدارسون تأثير الفرس العميق في الديانة اليهودية، ويُرجعون ذلك إلى التسامح الذي لقيه اليهود من الفرس ولوحظ أن أنبياء اليهود في أسفار العهد القديم استثنوا الفرس دون بقية السلالات

المتسلطة من دخول النار!! كما اعترف اليهود بقرب ديانة الفرس من ديانتهم، مع ما هو معروف في دين الفرس من الثنائية الوثنية بين إله النور أهورامازدا وإله الظلام أهريمان.

القدس في مملكة الإسكندر

زحف الإسكندر الثالث الأكبر بالإغريق حتى كوّن لهم دولة عظيمة، بلغ بها الشرق الأقصى، وضمت آسيا الصغرى ومصر وسوريا وفلسطين وبلاد الرافدين والهند وغيرها وكانت القدس في هذه الأثناء خاضعة للفرس الأخمينيين، ويتولى إدارتها يهود موالون للإمبراطور الفارسي، ففوجئ العالم بخروج فيليب 382 – 336 ق.م أمير مقدونيا ووالد الإسكندر وتوحيده المدن اليونانية وما أحاط بها ودبّر حينئذ للقاء الفرس، وهي الدولة الأقوى والأكثر نظاماً وتحضراً في العالم وقتها، لكنه اغتيل، ليحل محله ابنه الشهير الإسكندر المقدوني 356 – 323 ق.م، الذي لم يعش طويلاً، ولكنه أثر في تاريخ العالم تأثيراً كبيراً وعميقاً، وأهم ما فعله هو إسقاط الدولة الفارسية الأخمينية في عهد ملكها دارا الثالث 380؟ – 330 ق.م، حيث التقى الفريقان عند نهر إسوس طرسوس القديمة سنة 333 ق.م، وشرق نهر دجلة سنة 331 ق.م، وانتصر الإسكندر في المرتين، وانحل مُلك دارا وراحت القاعدة

التاريخية تسري على فلسطين من جديد، وهي أن القوة الأقوى في الغالب هي التي تستولي عليها،وقد فعل الإسكندر هذا، فبعد معركة إسوس اتجه نحو سوريا وفلسطين، وفتح استيلاؤه على صور القوية سنة 332 ق.م الطريق أمامه للسيطرة على بقية المنطقة، فاستولى على القدس، ودخل غزة، ومنها توجه إلى مصر وقد ارتكب الإسكندر فظائع في صُورَ وغزّة لمقاومتهما العنيفة له، وكانت صور أصعب مدينة لقيها الإسكندر في حروبه الطويلة في العالم؛ إذ امتد حصاره لها سبعة أشهر وعامل الإسكندر يهود القدس برفق يشبه ما كان عليه الفرس في هذا الأمر، ويقال إن أحد أحبار اليهود أثّر فيه، ونال رضاه، وشفع لقومه عنده ولكن مدينة القدس نفسها ضعفت أهميتها التجارية والسياسية في هذه الأثناء، وسط هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، واكتفت القوافل التجارية بالمرور بالمدن الفلسطينية الأخرى ذات الموقع الأفضل والغنى الأكثر في المواد الخام.

وعلى الرغم من موت الإسكندر في شبابه المبكر سنة 322 ق.م، فإن السياسات التي أقرها، والنظم التي ثبّتها أثرت في تاريخ القدس والمنطقة ثلاثة قرون متتالية، إذ ثبّت دعائم دولة قوية في مصر، ونازعتها دولة أخرى في سوريا والعراق، وكلتاهما مثّلتا الثقافة والحضارة اليونانية، التي كانت طابع هذا الزمن، وكان لها تأثير مباشر على الثقافات القائمة

حينئذ، حتى لجأ المفكرون اليهود إلى فلسفة كتابهم المقدس حتى يتخلصوا من تناقضاته، ويُظهروا توافقه مع العقل والمنطق.

لم يستطع هيراكليس الطفل الصغير الذي تركه الإسكندر على العرش ولا أريداوس أخو الإسكندر ذو الإمكانات الضعيفة الذي سعى البعض إلى وضعه على العرش أن يفعلا شيئاً؛ لذلك تنازع أمراء الإغريق بعد القائد الراحل على السلطان، وكوّن بطليموس الأول دولة قوية في مصر، وفعل سلوقس مثلَه في بابل وأنطاكية، ونُسبت الدولتان البطلمية والسلوقية إلى الرجلين، وتبادلتا السيطرة على القدس، لكن السمت الإغريقي كان مشتركاً بينهما وتعرضت القدس وفلسطين عموماً باعتبارها منطقة عبور مركزية للقوات المتصارعة للغزو المتواصل من الجيوش السائرة من آسيا الصغرى إلى سوريا أو مصر، تحمل أمتعتها ومعداتِها وعائلاتها وعبيدَها وفُتحت أورشليم ست مرات على الأقل في تلك السنوات.

الثورة المَكابية

بدأت هذه الثورة ضد السيطرة اليونانية السلوقية سنة 167 ق.م، وقادتْها أسرة تسمى الحشمونية، قيل إن زعيمها كان كاهنا طاعنا في السن يسمى ماتاثيوس، ويُعينه خمسة أولاد له، منهم يهوذا الذي لُقّب بـ مكابيوس أي المطرقة، وقد قاد قومه سنة 165 ق.م إلى انتصارات

مفاجئة على حكام سوريا السلوقيين، حتى دخل بهم القدس، وطهر بيت العبادة من وثنية اليونان وفي العام التالي حاقت الهزيمة بالثوار، لكنهم نالوا حريتهم الدينية، وتُرك لهم الإشراف على بيت عبادتهم في القدس، وإقامة شعائر دينهم بحرية.

وحين اندلع القتال من جديد كانت اللقاءات ساخنة، حتى قُتل زعيم اليهود، برغم الانتصار الذي حققه أتباعه، في معركة عَدَسا سنة 161 ق.م، حيث كان اليهود قد طلبوا المعونة من الرومان وقاد بني إسرائيل في المرحلة التالية يوناثان الابن الثاني لماتاثيوس حيث كان دعاة الثقافة الهلينستية أي اليونانية المطعَّمة بشيء من الثقافات الشرقية قد عادوا للسيطرة على الأوضاع من جديد، لكن يوناثان كسر خصومه من السلوقيين الذين كانت الفُرقة قد دبت بينهم، وأصبح هو كاهن قومه سنة 153 ق.م وبعد اغتيال يوناثان استطاع أخوه سمعان قيادة قومه سنة 142 ق.م، حتى اعترف لهم ديمتريوس الثاني ملك سوريا السلوقي بحريتهم، وصار كاهنا وملكا في أورشليم.

وحاول بطالمة مصر في عهد عاهل أورشليم الإسكندر حنايوس 104 – 78 ق.م السيطرة على الدولة اليهودية، لكن الهدف من الحرب لم

يتحقق، ورجع البطالمة إلى حدودهم، على الرغم من الشقاق اليهودي الداخلي.

نشبت حرب أهلية في الكيان اليهودي المتهالك، ووقعت الفرقة في الدولة الضعيفة أصلا، وانقسموا فريقين متباغضين الصدوقيين والفريسيين، وساند الإسكندر حنايوس الصدوقيين، وارتكب مذبحة بشعة ضد الفريسيين،حتى صلب كما تحكي الرواية ثمانمائة منهم، ونصب موائد الطعام أمامهم، ليتناوله هو وأتباعه على مشهد من خصومهم الذين يعانون أمامهم سكرات الموت!! فكان هذا مُؤْذِنا بكارثة قريبة تحل بهذا المجتمع المريض، الذي خالف تعاليم الأنبياء، ودنس أرض القدس بأنواع شتى من المنكرات، وأراق الدماء الحرام فوق الأرض التي شهدت أياماً مجيدة من جهاد الرسل، ودعوتهم الخلق إلى الله وتمثلت هذه الكارثة في استيلاء القائد الرومي بومبي على القدس وفلسطين.

بداية العهد الروماني للقدس

المرحلة الرومانية في تاريخ القدس 63 ق.م – 637م أهم في تأثيرها على المدينة من المراحل العبرية والكلدانية البابلية والفارسية، فقد صارت القدس مع الرومان حتى في اسمها شيئا آخر غير ما كانت عليه في أيام هذه الدول، بل إن فلسطين نفسها اكتسبت اسمها التاريخي من

خلال الرومان، الذين نسبوها إلى البالستين الشعب الأوروبي الكريتي المهاجر إلى أرض كنعان والقائد الذي بدأ معه التاريخ الروماني للقدس هو بومبي، وهو أحد الثلاثة الكبار المتنافسين على السلطة في روما كراسوس وبومبي ويوليوس قيصر،وكان قد حقق لروما إنجازات مهمة؛ فشارك في القضاء على ثورة العبيد بقيادة سبارتكوس 73 – 71 ق.م، كما طهر مياه شرق البحر المتوسط من القراصنة سنة 67 ق.م، كذلك سيطر على أرمينيا سنة 65 ق.م، وضمن ولاءها له ولشعب روما ثم نقل بومبي نشاطه الحربي إلى سوريا وفلسطين، فأعاد ملِكَ سوريا السلوقيَّ أنطيوخوس الثالث عشر إلى عرشه،كملك موالٍ لروما، لكن أنطيوخوس لم يستطع ضبط أمور سوريا، فأزاحه بومبي عن الحكم، وضم سوريا وفينيقيا إلى روما كولاية واحدة ولاية سوريا .

زحف الرومان بقيادة بومبي على فلسطين سنة 63 ق.م، وحاصروا القدس، لكن المدينة التي استعصت على الآشوريين من قبل لم تكن فريسة سهلة، ومع أنه كان متوقعا بقوة أن تسقط القدس بصورة طبيعية في يد بومبي، لو اتبع في حصارها سياسة النَفَس الطويل، إلا أن الخيانة عجّلت بالقضية، فاقتحمها الرومان بخيانة داخلية من بعض اليهود.

ودنس بومبي بيت العبادة في أورشليم، وأفقد اليهود استقلالهم؛ إذ ترك هركانوس كاهناً فقط على قومه، يرعى شئونهم الدينية، وبقيت حامية رومانية في المدينة تضمن بقاءها تابعة لروما وبهذا يبدأ التاريخ الروماني للقدس وفلسطين، واستمر زمناً طويلاً، ومنح القدس سمتاً جديداً، بقي مسيطِراً إلى أن فتح المسلمون المنطقة، حيث التأم لأول مرة في التاريخ شمل عرب القدس القدماء بعد اختلاطهم الكبير بالشعوب الغازية والنازحة مع إخوانهم من عرب الجزيرة الذين حملوا إليهم مشعل الهداية الربانية.

فلسطين واحتلال الروم لها

ورث الرومان جيرانهم الإغريق، وظلت جيوش روما تزحف على ممتلكاتهم، حتى انتزعتها جميعاً من أيديهم؛ سواء أكانت هذه الممتلكات في أوروبا أم إفريقيا أم آسيا لكن الحضارة المنتصرة كانت فقيرة في ثقافتها وفكرها، فانصاعت للمغلوب في هذه الناحية، وهُزمت أمام ثقافته الثرية، وكان هذا مثالاً عجيباً وقليل الحدوث لانتصار المغلوب على من غلبه، بدون سيف أو مدفع!!وهذا يعني بالنسبة لفلسطين وأشباهها من البلاد التي دخلت تحت حكم الرومان وسلطانهم، أن الحكم الجديد سيكون من الناحية الثقافية على الأقل مواصَلة للمرحلة اليونانية بشقيها البطلمي

والسلوقي، بل ربما قلنا: إن فلسطين وسوريا ومصر وغيرها من مناطق النفوذ اليوناني السابق هي الميادين التي هُزم فيها الرومان ثقافياً، وتلوّنوا بلون الفكر والثقافة اليونانية فحين دخل الرومان فلسطين وجدوا حالة حضارية نادرة؛ لم تشهدها المنطقة من قبل، فقد جرى خلال قرنين ونصف القرن من الزمان تلاقح حضاري كامل بين سكان فلسطين وبين الغزاة اليونانيين، فنشأ شعب اختلطت فيه دماء الكنعانيين والآموريين وهم شعب سامي عاش منذ الألف الثاني قبل الميلاد في سوريا وشمال العراق واليونانيين، وتمازجت ثقافة الغزاة بثقافات أهل البلاد، فنشأت ثقافة جديدة لا هي يونانية خالصة هللينية ولا هي شرقية خالصة، بل هي مزيج منهما هللينستية، وتداخلت الأديان، حتى بُنيت معابد تجمع آلهة اليونان مع آلهة الكنعانيين، بل تجمع يهوه إله اليهود مع آلهة اليونان في داخل القدس نفسها.

والغزاة لم يُقبلوا بالعدد الذي يسمح لهم بابتلاع سكان فلسطين عرقياً، لكنهم جاءوا حكاماً غالبين وفي أيديهم ثقافة أقوى مما في يد أهل فلسطين، لذلك نستطيع أن نقول: إن الشعوب السامية قد ابتلعت عامة الغزاة عرقيًا، ولوّنت الحكام القادمين بلونها، لكن الثقافة الغازية انتصرت بشكل ساحق، وإن خالطتها أمشاج من ثقافات الشرق، منحتها مذاقاً آخر جديدًا.

لقد خالف اليونان سُنَّة من سبقهم من الكلدان البابليين والآشوريين والفرس، حيث بدا هؤلاء دائمًا كطبقة غريبة ومميزة عن أهل البلاد التي يحتلونها، لكن اليونانيين منذ الإسكندر ركزوا على الاختلاط بهذه الشعوب ومصاهرتها؛ لينفتح الطريق أمامهم ثقافيًا وسياسيًا.

واستوعب سكان الشام الآراميون اللغة الإغريقية العامة ، وكذلك طريقة الحياة والسلوك والمعيشة الإغريقية، التي انتشرت خاصة بين الفئات الأرستقراطية من الشرقيين، الذين تلقوا تعليماً رفيعاً على يد أساتذة إغريق أو متأغرقين ولم يكن انتشار الحضارة الإغريقية وقفًا على مناطق المدن ومراكز الحضارة والعمران، التي أسسها المستوطنون المقدونيون والإغريق، بل وصلت إلى المدن الآرامية والفينيقية والكنعانية حتى بيت المقدس تسللت إليه الحضارة الإغريقية، فقد أصبح لكل مدينة في الشام دار للتربية؛ أي جمانزيوم وهذه كانت مراكز للنشاط الثقافي والحضاري الإغريقي وأمام هذا الاكتساح الجارف للحضارة الإغريقية تراجعت الحضارات السامية، سواء أكانت كنعانية أم آرامية أم عبرية؛ لتحتمي في معاقل لها في المناطق الريفية النائية، أو في مناطق المرتفعات الجبلية، وظلت في هذه المعاقل تدافع عن بقائها حتى بعد الفتح العربي ولم تلبث الحضارات الآرامية والكنعانية أن بدأت تتسلل

لتمتزج بالحضارة الإغريقية، وساعد على ذلك اتجاه الإغريق إلى الزواج من آراميات وكنعانيات.

مولد المسيح عليه السلام

أثناء حكم هيرود الكبير وُلد خاتمة أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام وقد وقع الغربيون في خطأ تاريخي كبير عند تحديدهم سنة ولادته، واضطر العالَم بعد ذلك إلى التسليم له، ففي سنة 532م دعا الراهب دينوسيس الصغير إلى التأريخ بميلاد المسيح عليه السلام وقدَّر الحساب بدون تدقيق، فأخطأ في بضع سنوات يذهب البعض إلى أنها سبع والبعض الآخر إلى أنها أربع سنوات، وحين أدرك الناسُ هذا الخطأ تعذّر عليهم التصحيح، فتركوه كما هو.